فحين يعجز الكاتب عن فهم الواقع واستيعابه وتمثله، ويعجز بالتالي عن التعبير عنه، فإنه يتوسل الوهم، يبني بكلماته مملكة من الوهم وينصّب نفسه ملكاً – كاتباً فيها.

وأفنان القاسم، في رواياته، يمثل نموذجاً يجدر الوقوف عنده، ويعبر تعبيراً صارخاً عن هذه الحالة. فهو، على الرغم من انطلاقه، في مجمل كتاباته، من ذلك الهم الفلسطيني العريض المتمثل بالاحتلال وضياع الأرض، وعلى الرغم من تعزيزه الايديولوجي للهم الوطني بالهم الطبقي من خلال حشد صور الاضرابات العمالية، والقمع الطبقي، والتضامن الاممي، والعداء للرجعية العربية... وغيرها، فانه يبقى عصياً على الوصول وخلق التواصل بينه وبين قارئه الذي يشاطره، من حيث المبدأ، همومه وأفكاره. وذلك ما يعيد التأكيد على ان للفن شكله الخاص وطريقته الخاصة في الوصول. وبديهي ان هذا الشكل وهذه الطريقة يغايران طريقة الايديولوجيا وشكلها في الوصول، ويغايزان أيضاً الصياغة التعبيرية التي تحل بها.

ان السمة الاكثر بروزاً في أعمال أفنان القاسم الروائية هي التجريد، فهو، في كل رواياته، يبني عالماً مجرداً يفتقد حرارة الالوان، يخرج عن جاذبية الزمان والمكان ليخلق زمانه ومكانه السابحين في ملكوت الوهم. فالكاتب شغوف بـ«الرمز»، وهذا الشغف يحوّل عملية الكتابة الروائية لديه إلى جهد لا يبحث عن الواقع في ذاته، بل يبحث عن المعادل الرمزي الذي يوازي الخيوط الواضحة للواقع، أي أحداثه الكبرى ومفاصله التاريخية التحولية.

هكذا تتم عملية اعدام الواقع ومسخه بمعادل رمزي يستبدل الحقيقي بالوهمي، ويُسقط التفاصيل ليظل يدور حول العموميات. ومن هذا المعادل تخرج «الشخصيات» بلا نبض، متجردة من انسانيتها، لتشكل رديفاً لفكرة أو رمزاً لها. ويغيب المناخ الاجتماعي والتاريخي الحقيقي عن الرواية حرصاً للابقاء على الاحجية الرمزية البدائية التي تعجز عن خلق شيء آخر سوى الوهم.

□ □ □

تقوم رواية أفنان القاسم الاولى «**العجوز**»[٢] على مخطط ذهني – رمزي يجهد، في أحداثه وشخصياته وأفكاره، إلى ملامسة وقائع التاريخ واعادة انتاجها – فنياً – بشكل مغاير للصورة الواقعية، فيتقدم برواية ذهنية خالصة تتلخص علاقتها بالواقع كعلاقة وهم بحقيقة، ويتلخص هم الكاتب في كيفية اعادة صياغة الواقع بشكل «يعقده»! فهو يرى الواقع مجرد «فكرة» عامة ومبسطة، ومهمة الروائي تقتصر على التقاط الفكرة المبسطة و«تعقيدها» بعمل روائي (رمزي). ولكن، بما أن الكاتب لا يثق بقدرة قارئه على استيعاب الرمز وفهمه واستجلاء معناه (الخفي)، فانه يتطوع بدوره، وفي أكثر من موقع، كما سنرى، إلى الافصاح المباشر عن معنى رمزه.

المرأة العجوز هي محور الرواية – فكرتها المحورية. ويتمثل عجز العجوز، فنياً، في كونها أخفقت عن اقناعنا بذاتها الانسانية واشعارنا بحقيقة نبضها ومعاناتها، مما أفقدنا